

المحاضرة الرابعة / نظريات الاتصال الاجتماعي:

تمهيد:

احتلت عملية الاتصال أهمية خاصة في العلوم السوسيولوجية، وتعرف النظرية بكونها تعميمات تسمح بشرح العلاقات القائمة بين العناصر المختلفة المشكلة للظاهرة، وتعالج هذه المحاضرة أهم التيارات السوسيولوجية التي فسرت عملية الاتصال في ضوء المجتمع، كما تقف على أهم وظائف الاتصال الاجتماعي انطلاقاً من ذلك.

1. نظرية البنائية الوظيفية:

يشير مصطلح بناء إلى الطريقة التي تنظم بها الأنشطة المتكررة في المجتمع، والواقع أن السلوك الأسري والنشاط الاقتصادي والنشاط السياسي والعقيدة وغيرها من أشكال الأنشطة المجتمعية تعد على درجة عالية من التنظيم من وجهة نظر سلوكية¹.

ويشير مصطلح وظيفة إلى مساهمة شكل معين من الأنشطة المتكررة في الحفاظ على استقرار المجتمع، وقد قدم روبرت ميرتون مجموعة من المسلمات الخاصة بهذه النظرية يمكن تلخيصها فيما يلي²:

1. النظر إلى المجتمع على أنه نظام يتكون من عناصر مترابطة وتنظيم لنشاط هذه العناصر بشكل متكامل.
2. يتجه هذا المجتمع في حركيته نحو التوازن ومجموع عناصره تضمن استمرار ذلك بحيث لو حدث أي خلل في هذا التوازن فإن القوى الاجتماعية سوف تنشط لاستعادة هذا التوازن.
3. كل عناصر النظام والأنشطة المتكررة فيه تقوم بدورها في المحافظة على استقرار النظام.
4. الأنشطة المتكررة في المجتمع تعتبر ضرورية لاستمرار وجوده وهذا الاستمرار مرهون بالوظائف التي يحددها المجتمع للأنشطة المتكررة لتلبية لحاجاته.

أسست النظرية الوظيفية انطلاقاً من الأفكار التي قدمها أوغست كونت الذي تبنى المفهوم العضوي للمجتمع، وحسب هذه المسلمة فإن المجتمع يعد نوعاً خاصاً من التنظيم، وهو بخلاف التنظيمات الأخرى الكلية منه ليس مجرد مجموع العناصر ويشكل التخصص أهم مميزات هذا التنظيم والذي يؤدي إلى توازن النظام الاجتماعي وفعالية الروابط الاجتماعية³، إذ أكد أن الأشخاص الذين يشتركون في تخصص معين يعملون على

تطوير روابط متبادلة بينهم ولكنهم يصبحون مغتربين عن الجماعات الأخرى، ولذلك يرى أن نمو المجتمع وامتداده يعتمد على اتصال المجتمع ببعضه البعض وعدم انقسام المجتمع عن طريق التخصص في الوظائف فيرى أن المبالغة في التخصص يمثل خطرا جسيما على المجتمع بل قد تؤدي إلى تفككه⁴.

ويهتم مفهوم الوظيفية بتحليل العلاقة بين النظام ككل والوحدات المكونة لهذا النظام، وترجع جذور هذا المصطلح إلى العلوم البيولوجية والاجتماعية والسلوكية، ففي البيولوجيا مثلا يقوم كل عضو بدور مهم في حياة النظام ككل، ويتضمن مفهوم الوظيفة في النظام الاجتماعي مجموعة من الوحدات، والوحدة قد تكون فرد أو مؤسسة تمارس هذه الوحدات مجموعة من الأنشطة، ويتم ممارسة هذه الأنشطة داخل بناء، وينتج عن ممارسة هذه الأنشطة داخل بناء محدد مجموعة من الوظائف منها الإيجابي كالحفاظ على البناء الاجتماعي والربط بين آثار هذا السلوك واحتياجات البناء الاجتماعي، فمثلا يؤدي تقديم وسائل الإعلام إلى زيادة معلومات الأفراد ومراقبة البيئة وتحقيق الترابط الاجتماعي ونقل التراث الحضاري من جيل إلى جيل، يشير مصطلح الاختلال الوظيفي إلى الآثار غير المرغوبة التي قد تحدثها وسائل الاتصال مثل أن يؤدي عرض الأخبار إلى زيادة القلق والاضطرابات لدى الأفراد⁵.

ومما يؤكد قدرة نظرية التحليل الوظيفي أو مدخل التوازن على تقديم تفسيرات علمية وظيفية متوازنة لعلاقة الفرد بالمجتمع وتفاعلاته واتصالاته التي يقوم بها على مستوى وحداته النسبية بوجهة نظر تكاملية، أن بارسونز مؤسس هذه النظرية قد طور نظريته عن أنساق الفعل من نظرية فردية تحدث عن اختيارات الفاعلين في إطار نموذج وحدة العقل إلى نظرية كلية تتعامل مع الأنساق الاجتماعية المحددة لاختيارات الفاعلية، وبذلك يكون نظريته الوظيفية قادرة على تحليل علاقة الفرد والمجتمع وفهم فعل الفرد في ضوء علاقات التفاعل والاتصال بالمجتمع وظيفيا، كما يحقق في النهاية أهداف النظام الاجتماعي واستقراره دون خلل وظيفي متعلق بالأدوار التي تقوم بها الوحدات التي تدخل في تكوين النظام الاجتماعي⁶.

2. النظريات النقدية:

تفترض النظريات النقدية أن وظيفة وسائل الإعلام هي مساعدة أصحاب السلطة في المجتمع على فرض نفوذهم والعمل على دعم الوضع القائم، ولذلك كانت دراساتهم النقدية للأوضاع الإعلامية وانتشار

الثقافة الجماهيرية بديلا عن الثقافة الراقية، لوضع تفسيرات خاصة بمحتوى وسائل الإعلام للترويج لصالح الفئات المسيطرة على المجتمع⁷.

وتتفق الدراسات النقدية في تحديد علاقة وسائل الإعلام بالقوى الاجتماعية والسياسية على النحو الآتي⁸:

1. إن محتوى وسائل الإعلام يروج اهتمامات الجماعات المهيمنة في المجتمع، ويميل هذا المحتوى إلى التغطية غير المتوازنة للعلاقات الاجتماعية.

2. تحليل المعاني الرمزية للمحتوى الذي تروجه المصالح الرأسمالية لجذب اهتمام الطبقات العاملة.

3. فضح أسطورة حياد الدراسات الإعلامية الأمريكية التي يمولها كبار رجال الأعمال لخدمة الثقافات المهيمنة.

وتنتمي النظريات النقدية إلى الفكر الماركسي وهي تمثل مدخل يطلق عليه المدخل الثقافي، وتستمد هذه النظريات أفكارها من مدرسة فرانكفورت وأعضاؤها البارزين هم "هوركايمر" و"أدورنو" و"ماركوزي"، وقد بدأت هذه المدرسة نشاطها في جمهورية فيمار الألمانية ثم هاجرت إلى الو.م.أ في أعقاب الحرب العالمية. وتوجد ثلاث تيارات فكرية تمثل هذه النظريات:

1.1 مدرسة فرانكفورت: هي إحدى المدارس التي قامت مبكرا على فكرة الماركسية الجديدة اعتبارا من 1923 في معهد الدراسات الاجتماعية بفرانكفورت، وقام بإعلاء فكرتها كل من ماكس هوركايمر وأدورنو، وترى أفكار هذه المدرسة أن ما تقدمه وسائل الإعلام عبارة عن أعمال وضيعة أو تشويه للأعمال الراقية هدفها إلهاء الناس عن البحث عن الحقيقة، فمن خلال التجارة العالمية والثقافة الجماهيرية ينجح الاحتكار الرأسمالي في تحقيق أهدافه، وحيث تكون السلعة هي الأساس فإن الثقافة يمكن تسويقها أيضا لتحقيق الربح، وتعمل من خلال صناعة ثقافية على ترسيخ الأفكار الخاصة بسيطرة الطبقة المالكة على المجتمع بمفهومه الرأسمالي⁹.

2.1 النظرية الثقافية النقدية: أنتجت الدراسات النقدية ما يطلق عليها النظرية الثقافية وخصيشتها الأساسية هي دراسة الثقافة الجماهيرية، مبرزة عناصرها الأنثروبولوجية الأكثر أهمية والعلاقة التي يتموضع في نطاقها المستهلك والشيء المستهلك.

لا ترتبط النظرية الثقافية مباشرة بالإعلام الجماهيري ولا بتأثيراته على المتلقين فموضوع تحليلاتها هو تحديد الشكل الجديد لثقافة المجتمع المعاصر.

يقول إدغار موران في كتابه روح الزمن: " تشكل الثقافة الجماهيرية نظام ثقافة مكون من مجمل الرموز والقيم والأساطير والصور التي تتعلق سواء بالحياة العملية أو بالمخيل الجماعي، ومع ذلك ليست الثقافة الجماهيرية النظام الثقافي الوحيد للمجتمعات المعاصرة فهذه الأخيرة هي واقع سياسي ثقافي يحتوي الثقافة الجماهيرية التي تخضع ضمن إطار هذا الواقع للاحتواء والرقابة والتحكم...، وفي الوقت نفسه تميل إلى جعل الثقافات الأخرى تتآكل وتتفكك.. إنها ليست مستقلة بشكل مطلق، يمكن أن تتشبع بثقافة وطنية دينية أو إنسانية، وهي ليست الثقافة الوحيدة للقرن العشرين ولكنها التيار الجماهيري الحقيقي والجديد في القرن العشرين¹⁰.

3.1 نظرية الاقتصاد السياسي: تنهض نظرية الاقتصاد السياسي على تفسير علاقات الاتصال والإعلام ووظائفه على أسس مادية في نظرية ماركسية خالصة يتبناها الذين درسوا سيطرة الصفوة على المؤسسات الاقتصادية وحاولوا أن يصلوا تفسيرات خاصة بطرق سيطرة الاقتصاد على المؤسسات الاجتماعية ومنها وسائل الإعلام وتقبل هذه النظرية الفرض الماركسي الخاص بأن الأساس هو سيطرة البناء الفوقي واختير أصحاب هذه النظرية كيفية قيام المؤسسات الاقتصادية بتشكيل وسائل الإعلام لتحقيق أهدافها وتلبية حاجاتها¹¹.

ويرى محمد عبد الحميد أن النظريات النقدية السابقة تتميز بالسلمات الآتية¹²:

- تأكيد حق الفرد في الحرية والاختيار ورفض الصور المختلفة لفرض أنواع معينة من الثقافات أو الأفكار من البنية الفوقية وبالتالي رفض كل أنواع الهيمنة التي تمارسها الصفوة على أفراد المجتمع.
- ترى هذه النظريات أن السياق الاجتماعي بمعناه الأشمل هو المجال الذي يوضح صيغة العلاقات بين وسائل الإعلام والقوى المسيطرة في المجتمع ولذلك فهي ترفض الدراسات الجزئية التي تهتم بجمهور وسائل الإعلام واتجاهاته وسلوكه الاتصالي أو تحليل محتوى الإعلام دون إطار نظري كاف يربط أنماط السلوك الاتصالي والمحتوى بالسياق الاجتماعي الأكبر.
- تهتم معظم الدراسات النقدية بدراسة علاقات وسائل الإعلام من خلال مخرجاتها والنظر إلى المحتوى كبناء لغوي من الرموز التي يتم اختيارها بعناية من بين الإطار المرجعي لفكر الصفوة المهيمنة وأهدافها.

تتسم البحوث النقدية في نظرتها إلى جمهور المتلقين بالتفاؤل حيث يصفون الجمهور بأنه عنيد يقاوم جهود المنتجين في وسائل الإعلام الذين يفرضون خبراتهم عليه من خلال المحتوى ويرى ستوارت هول أن هذا الجمهور قد يستوعب الفكرة في خطوطها العريضة ولكنه يقاومها عند التطبيق في حالات محددة.

إن الاهتمام بالمستوى الأوسع في الدراسات النقدية لا يعني إغفال المستويات الأصغر فدراسة التفاعل بين المؤسسات الإعلامية مع البيئة الاجتماعية والسياسية أو تحليل العلاقة في إطار الاقتصاد السياسي يتطلب دراسة العلاقة بين الإعلاميين ومصادرهم في المؤسسات السياسية واتجاهات هذه العلاقة فقد تميل هذه العلاقة إلى التوازن بينما تميل المؤسسات الإعلامية في سياستها الكلية إلى التبعية لأسباب اقتصادية وهذا يعيد الأذهان مرة أخرى لعدم وعي الإعلاميين بالمشكلات القائمة من وجهة نظر الدراسات النقدية.

3. نظرية التفاعلية الرمزية :

تكمن القيمة الحقيقية لمفهوم التفاعل الاجتماعي في كونه مرتبطا باستمرار الحياة الاجتماعية للجنس البشري.

وما يتردد من مفاهيم ومصطلحات بين علماء الاجتماع والانثروبولوجيا وعلم النفس الاجتماعي وغيرها من العلوم الاجتماعية، تلك المفاهيم المتمثلة في التنظيم الاجتماعي والنظام والجماعة والمجتمع والسلوك والفعل والاتجاهات والعلاقات والوعي والذاتية الباطنة، ما هي إلا تعبير عن تفرد الكائن البشري بالتفاعل الاجتماعي المنظم والمستمر¹³.

وقد تناولت نظرية التفاعلية الرمزية هذا المفهوم (التفاعل الاجتماعي) القائم على الرموز، وتركز بشكل مباشر على الاتصال ويشكل أبرز روادها جورج ميد.

ويصف بلومر بعض المقدمات لهذه النظرية على النحو الآتي:

من منظور التفاعل الرمزي فإن الفعل الاجتماعي يكون مستقرا في الأفراد الفاعلين الذين يلائمون أو يكيّفون مسارات أفعالهم الشخصية حول كل منهم الآخر من خلال عملية التفسير، وعلى النقيض من ذلك

فإن المفاهيم الاجتماعية تضع الفعل الاجتماعي عادة في حركة نشاط المجتمع أو في بعض وحدات هذا المجتمع.

ويعارض بلومر بعد ذلك هذا المدخل الذي يستند على أساس النسق الاجتماعي والذي يرى أن الفعل هو تعبير عن النسق سواء في حالة التوازن أو في حالة البحث عن هذا التوازن.

وينتقد بلومر هذا المدخل على أساس أنها تتجاهل النظر إلى حياة الجماعة والتي تتألف من الأفعال الجماعية المتناغمة للأفراد الذين يسعون لمواجهة أو مقابلة مواقف حياتهم، ويؤكد بلومر أيضا على حرية اختيار الفعل داخل إطار النظام الاجتماعي، ومن وجهة نظر التفاعلية الرمزية فإن تنظيم المجتمع الإنساني يمثل الإطار الذي يحدث بداخله الفعل الاجتماعي، كما أن هذا التنظيم ليس هو العامل المحدد للفعل.

ويؤكد بلومر كذلك على أن عناصر معينة مثل الثقافة والنسق الاجتماعي أو التدرج الاجتماعي تضع شروطا للفعل دون أن تحدده أو تقيده، فالناس لا يقومون بأداء الفعل من أجل الثقافة أو البناء الاجتماعي أو ما شابه ذلك ولكنهم يقومون بأداء الفعل وفقا للموقف¹⁴.

وهكذا من وجهة نظر بلومر هناك نقطتان أساسيتان تتعلقان بالفعل الاجتماعي، النقطة الأولى أن الفعل الاجتماعي الذي يحدث في الموقف يتشكل وفقا للتنظيمات الاجتماعية، ومع ذلك فإن هذا الفعل يكون موجها نحو الموقف وليس موجها بشكل مباشر نحو الملامح المحددة ذاتها، والنقطة الثانية إن هذا المدخل يسمح بحرية أكبر وتنبؤ أكثر من مدخل النسق الاجتماعي، ومن خلال هذا الإطار العام يقدم ميد أيضا رأيا في السلوك الاتصالي والذي يضيف شكلا جوهريا على وجهة نظر بلومر حيث أبرز نقطتين أساسيتين:

النقطة الأولى هي أولوية الاتصال، والنقطة الثانية انعكاسية الفعل الاتصالي (قدرة الفرد على التحدث مع نفسه من وجهة نظر الآخرين)، في هذه المحادثة الداخلية وفي نتيجتها أو حصيلتها فإن الشخص يعطي هذه المحادثة شكلا ويصوغها وفقا للمجتمع بدلا من أن يقوم المجتمع بتشكيلها، وهكذا فإن الاتصال يعتبر عملية خلاقية بمعنى أن نتيجته هي نفسها نتاج للفعل نفسه الذي يعد فريدا من نوعه ولا يمكن التنبؤ به.

وفيما يتعلق بأولوية الاتصال يمكننا أن نقبس من جورج ميد قوله أن فونت يفترض مقدما أن الذوات تعتبر سابقة على عملية الاتصال، بحيث يمكن شرح الاتصال من خلال هذه العملية، وعلى العكس من ذلك فإن الذوات قد تتسبب في حدوث العملية الاجتماعية وأيضا تتسبب في الاتصال¹⁵.

وعلى العموم يمكن تلخيص أهم أفكار نظرية التفاعلية الرمزية في الآتي¹⁶:

تعني التفاعلية الرمزية : التفاعل الذي ينشأ بين مختلف العقول والمعاني والذي يعد سمة مميزة للمجتمع الإنساني ويستند هذا التفاعل الاجتماعي على: أن يأخذ الفرد ذاته في الاعتبار على أن يحسب حساباً للآخرين، أي أن يستوعب أدوار الآخرين.

خاتمة :

قدمت هذه المحاضرة أهم المداخل النظرية لموضوع الاتصال الاجتماعي وهذا لا يعني أنها فقط مقتصرة على هذه المداخل فقط، بل هناك العديد منها والذي يصعب تلخيصه في محاضرة واحدة، تجدر الإشارة كذلك إلى ظهور تيارات فكرية متعددة تمثل هذه المداخل وتشرح العملية الاتصالية انطلاقاً من ذلك كما تستوعب المستجدات الفكرية والمجتمعية في ذات الوقت.